دستويفسكي والمعذبون في الأرض

محمد مفيد الشوباشي

أخذت روسيا تستيقظ من غفوتها منذ أن فتح بطرس الأكبر أبوابها للحضارة الغربية، وظلت تحاكي الغرب في مختلف ميادين العلوم والفنون والآداب حتى مستهل القرن التاسع عشر، مندفعة في الطريق الذي رسمه لها قيصرها المستنير.

واعتاد شعراء روسيا وكتابها الذين ظهروا في عهد المحاكاة أن ينقلوا عن أدبـاء ألمانيا وفرنسا قصصهم ومنظوماتهم، وينتحلوها دون أن يدخلوا عليها تغييراً إلا استبدال الأسماء الروسية بالأسماء الغربية. ولم يكن مناص من أن تحدث هذه الكتب أثرها في عالم الأدب فيخرج من بين قرائها العديدين أفراد من الأفذاذ الموهوبين يحاولون أن يعبروا في صدق عن مشاعرهم، ثم عن مشاعر قومهم. ومن ثم بزغ نجم بوشكين وجوجول في سماء الأدب الروسي. واستتبعت اليقظة اليقظة، وسرعان ما ائتلفت جماعة من شباب روسيا المثقف أطلقت على نفسها اسم «جماعة الديمقراطيين الثوريين»، وأخذت على عاتقها هداية القراء إلى الأدب الأصيل النابع من وجدان كاتبه، العاكس لنشاط مجتمعه، المعبر عن مشاعر قومه، لا سيما مهضومي الحقوق المحتاجين إلى أحرار شرفاء يأنفون أن يروا الظلم فلا يدفعوه بكل ما يستطيعون من وسائل..

وفي عام ١٨٢١، عندما كانت هذه الجماعة توشك أن تولد، ولد فيودور ميخايلوفيتش دوستويفسكي.

وما ترعرع حتى وجد نفسه في غمار معترك أدبي يدور فيه الصراع بين الجديد والقديم، أو بين ثلاث مدارس أدبية... مدرسة تحاكي أدب الغرب دون الشعور بأية غضاضة. ومدرسة رجعية تتعصب للسلافية، وتمقت كل ما هو جليب من البلاد الأجنبية وترفضه على زعم أنه يلوث صفات الشعب السلافي السامية، ويفسد أصالته... ومدرسة الديموقراطيين الثوريين الذين حاولوا دفع روسيا إلى طريق التقدم الحضاريّ، والاستنارة بكل علم وفن جديدين، مع تنكب التبعية الفكرية والمحاكاة العمياء.

وما أن وصلت دعوة هذه المدرسة الأخيرة إلى أذني دوستويفسكي حتى تغلغلت في كيانه، واجتذبته إلى أصحابها... نعم.... لا بد للأديب الشريف ذي الحس المرهف أن يشعر بآلام المغبونين الأشقياء من بني قومه، وأن يشرح لهم خوالجهم في أدبه حتى يروا فيه أنفسهم كأنهم يرونها منعكسة في مرآة، ويفسر لهم مشكلاتهم تفسيراً ييسر حلها، وينير لهم سبيل التقدم حتى يلحقوا بالركب الحضاري، ويتمكنوا من بناء حياة أفضل...

ماتت أمه وهو في السادسة عشرة. وحزن أبوه عليها. وناء به الحزن حتى أعجزه عن مواصلة عمله، وكان طبيباً في الجيش، فطلب إحالته إلى المعاش... وكان الفتى في هذه الأثناء قد أتم دراسته الثانوية فالتحق بمدرسة «الأفذاذ» العليا في مدينة بطرسبورج، وتخرج فيها عام ١٨٤٣، وعين ضابطاً برتبة ملازم ثان. وكان أبوه قد مات مقتولاً وهو لم يزل بالمدرسة العليا. ولم يطق مزاجه الشاعري احتمال أعباء الوظيفة الصارمة، فهجرها بعد عام واحد ملبياً هاتف ميله الأدبي، معولاً على احتراف الأدب.

عانى الفاقة بعد أن أدركته حرفة الأدب، ولا عجب إذا عجز، وهو يخطو خطواته الأولى في عالم الكتابة، عن ابتداع الآيات الأدبية التي يكفل له رواجها كسب قوته، ودفعته الحاجة إلى ترجمة «أوجونيه جراندى» لبلزاك، و «دون كارلوس» لشيلر. ثم تهدّج لدعوة «الديمقراطيين الثوريين»، وخطر له أن يكتب قصة يعكس فيها واقعه، وهو واقع الملايين من أفراد الشعب المعوزين الذين أذلهم الحرمان، وأذاقهم صنوف العذاب الجسدي والروحي. ولم يجد عناء في اختيار عنوان قصته، وهو «القوم المساكين». ولم يدرك إذ انتهى من كتابتها قيمة ما كتب. لم يدرك أنه طلع على العالم، أول ما طلع، بآية أدبية افتتحت عهداً جديداً في عالم الكتابة.

تهيّب عرضها على أحد أهل الرأي من الأدباء خشية أن يخيّب رأيه فيها ظنه، ثم تشجع فطلب إلى الشاعر نيكراسوف تصفحها. واشتد به القلق عقب تسليمها إليه فلم ينم ليلته... ولم ينم نيكراسوف ليلته بدوره، فهو لم يكد يقرأ الأسطر الأولى من القصة الوليدة مع أحد أصدقائه حتى أرغمته روعتها على مواصلة قراءتها، ولم يتمها إلا في الرابعة صباحاً. ولم يطق إرجا إبداء الاعجاب بها لكاتبها، فطرق بابه قبيل بزوغ الفجر، فالبشرى تستحق إيقاظه في هذه الساعة المتأخرة من الليل. ولكن دوستويفسكي كان لا يزال يتقلب في فراشه موزعاً بين بوارق الأمل وظلمات اليأس. وما فتح الباب حتى احتضنه الشاعر الكبير في حماسة، وأشبعه إطراء إذا كان الإطراء يشبع الإنسان!

تتحصل هذه القصة في أن موظفاً متقدم السن، ضئيل

المرتب، يدعى «ماكار ديفوشكين» عرف فتاة دفعها العوز إلى طريق الرذيلة، فأنقذها من التردّى في هذه الحمأة، واستأجر لها غرفة تجاه غرفته، وقاسمها قوته، ولم يدنس هذه العلاقة برغبة مريبة، بل اكتفى بالنظر إليها من نافذته، ومبادلتها البسمات الرقيقة البريئة. وكان يقتر على نفسه في المأكل والملبس إلى حد الجوع والارتجاف برداً ليستطيع أن يشتري لها هدايا لا يستهدف منها إلا إبهاجاً... إن هذه القصة تصوّر إنسانية الرجل الفقير، تلك الإنسانية التي غالباً ما تفيض في نفوس الأغنياء.

وهلل الأدباء «الديمقراطيون الثوريون» لهذه القصة على أساس أنها اتجهت إلى تصوير حياة المساكين الذين يعانون الفقر والعوز دون أن يهتم أحد بمشكلاتهم، بل دون أن يشعر حتى بوجودهم. بيد أن الناقد الفرنسي المعاصر «ليون روبيل» لاحظ أن بوشكين سبق إلى اختيار حياة «الموظف الصغير» موضوعاً لإحدى قصصه. (المقصود قصة وكيل مكتب البريد). وسبق كذلك إلى تصوير حياة «المساكين الضائعين» في قصته «فارس من البرونز». وكذلك عُني جوجول بوصف مثل هذه الشخصيات، لا سيما في كتابه: «قصص من بطرسبورج».

وبرغم ذلك انفردت قصة دوستويفسكي في زمانها بأنها وصفت لأول مرة ما يتميز به «الموظف الصغير» من قلب كبير. وقال عنها ناقد روسي من النقاد الأحرار الذين عاصروا كاتبها: «إن القصة أظهرت مبلغ ما تتصف به الطبيعة البشرية المحدودة الموارد إلى أقصى حد، من نبل، ومن جمال وقدسية». وقال ناقد روسي آخر ينتمي إلى جماعة «الديموقراطيين الثوريين»: «إن الأدب يضطلع برسالته الاجتماعية السليمة حينما يبرز القيمة الإنسانية الكامنة في أولئك الذين حرمهم النظام الاجتماعي الجائر جميع الحقوق».

ومن الطبيعي أن يحدث مثل هذا التقدير أثراً كبيراً في نفس دوستويفسكي، وأن يدفعه إلى مشايعة «الديموقراطيين الثوريين» في معتقداتهم، والاشتراك معهم في منازلة الحكم القيصري والإقطاع والرجعية. واشتطت به الحماسة حتى دفعته إلى مخالطة «جماعة بتراشفسكي» الثورية المتطرفة.

وكتب في هذه الأثناء بضع قصص افتقرت إلى الجدة والأصالة اللتين اتصفت بهما قصة «القوم المساكين»، فلم تصب لذلك أية شهرة. ومن بينها «قلب ضعيف» و «لص شريف» و «الليالي البيض».

وفي منتصف ليلة من ليالي الربيع، عام ١٨٤٩ طرق باب الكاتب الكبير جماعة لم يحضروا لزيارته، أو لتهنئته على روعة ما كتب، كما فعل نيكراسوف فيما مضى، ولكن ليقتادوه إلى التحقيق فالسجن... ولم يلبث أن حوكم بتهمة محاولته قلب نظام الحكم القيصري، وقضت المحكمة بإعدامه... ووقف موقفاً عصيباً ينخلع لهوله قلب أشجع الشجعان... موقفاً أتلف أعصابه، وأثر في عقليته ونفسيته تأثيراً لازمه طوال حياته... عصبوا له عينيه توطئة لإعدامه. وانتظر الموت مرتعد الفرائص. ولكن رسولاً من القيصر جاء في آخر لحظة معلناً أن القيصر شمل العاصي برحمته، واستبدل نفيه إلى سيبيريا بحكم الإعدام. ودبت الحياة في أوصال الكاتب المرهف الشعور بعد أن جمدت. وحمد للقيصر هذه النعمة!! يا لها من تجربة أمدت دوستويفسكي فيما بعد بأدق أوصاف المواقف العصيبة، وجعلته أقدر كاتب على استثارة المشاعر وزلزلة القلوب.

خرج من تلك التجربة القاسية بأن الرحمة والغفران هما أجمل ما في الوجود، وأنهما يتفجران حتى من أقسى القلوب عند إذعان المظلوم ورضاه بنصيبه، ويفيضان حتى من أرحم النفوس عند تمرد المظلوم وهبوبه للأخذ بالثأر. لقد آمن ذلك الكاتب الجبار بالعقيدة الأرثوذكسية، ورأى في عذاب الإنسان طريقه الوحيد للخلاص، وفي المحبة والمغفرة حلاً لجميع مشكلاته، وفي الزهد راحة النفس والبدن. وراح يبشر بتلك المعتقدات فيما كتب بعد ذلك من روائع القصص. وقد أخذ عليه أغلب النقاد هذا الاتجاه في كتاباته على زعم أنه يؤيد الروح الانهزامية، ويشجع الطغاة على المضي في نزعتهم الاستبدادية، ولكنهم أجمعوا برغم ذلك وعلى أن فن دوستويفسكي في كتابة القصة بلغ الذروة.

وقضى سنوات النفي في سيبيريا مستغرقاً في التفكير والتأمل، ورجع هناك عن كل ما آمن به من معتقدات جماعة «الديموقراطيين الثوريين»، ورأى في زحف الحضارة الغربية على روسيا مفسدة لصفات الروس النبيلة، وفي تقدم العلوم مفسدة للحياة. ومما قاله في قصته القصيرة: «حلم رجل هازل»: «إن جمال الحياة يتجلى للإنسان عندما يحيا الإنسان الحياة، لا عندما يزداد بها علماً ومعرفة». وقد ازدادت النزعة إلى الزهد تمكناً منه وهو يعاني العزلة والوحشة في سيبيريا، وانعكس ذلك في قصصه على نحو واضح مما حمل ستيفان زفايج على القول. «لنلق نظرة على آلاف الكتب التي تخرجها المطابع الأوربية كل عام... عم تتحدث هذه الكتب؟.. إنها تتحدث عن التعطش إلى نعيم الحياة... امرأة تتوق إلى رجل. ورجل يتوق إلى الغنى والسلطان والمجد. إننا نرى وراء تلك الأماني «كوخاً» هادئاً عند ديكنز، مبهجاً للنفس، غارقاً بين الخضرة، آهلاً بصبية سعداء... ونجد عند بلزاك قصراً ومروجاً، ومبالغ طائلة من المال.... إن الجميع يتوقون إلى السعادة والراحة والغنى والسلطان.... أما أشخاص دوستويفسكي فلا يتوقون إلى شيء.... إنهم ينطوون على نفوس سامية تستعذب العذاب، نفوس أقرب إلى احتقار الغنى والسلطان، تزهد في متاع هذا العالم، بيد أنها تنشد المشاعر العميقة... تنشد صميم الحياة، وتريد احتضانها بأسرها... نفوس مزقها العذاب، والتهمتها الحمى والتشنجات والأزمات....»

لقد رأى، بعد مخالطة المجرمين في سيبيريا، أن صفات الشعب الروسي الأصيلة كامنة حتى في نفوس أولئك الآثمين الذين لم يرتكبوا الجريمة إلا لافتقارهم إلى الرحمة والعدالة. والرحمة والعدالة تنبعان من معين الحب. والحب يتولد من الإيمان الذي هو السبيل الوحيد لخلاص البشر. ومن ثم ازداد

هذا الكاتب الكبير القلب عطفاً على الشعب الروسي الذي يحيا على الفطرة مبرّءاً من مفاسد الحضارة الغربية. وتطوّر عطفه عليه إلى تعلق به، وحب شديد له. وأنكر فيما أنكره على جماعة الديمقراطيين الثوريين المتأثرين بالثقافة الغربية ازدراءهم له. إن هؤلاء المثقفين قسموا الشعب الروسيّ إلى فريقين، فريق من الصفوة الممتازة المتعالية التي فقدت أصالتها الروسية، وفريق من جموع الشعب الأصيلة المتردية في هوة العوز والحرمان... هذا ما ارتآه دوستوييفسكي فانحاز في ذلك الوقت لجماعة «المتعصبين للسلافية» واعتنق آراءها ودلّل على مدى سوء أثر الثقافة الغربية في جماعة الروس المتزودين منها بأن مختلف مذاهب الغرب في الفلسفة والأدب بلبلت خواطرهم، وزعزعت عقيدتهم الدينية، وإيمانهم بوطنهم، بينما عقيدة الشعب الدينية الراسخة، وإيمانه الثابت بنفسه هما عماد رقيّه وعظمته.

هذه هي أهم معتقدات دوستوييفسكي التي سخّر كامل طاقته وقدرته الفنية الخارقة في قصصه للتدليل على صحتها... أما منهجه في الكتابة فإننا ندعه يتولى هو نفسه شرحه. قال مرة ينصح كاتباً ناشئاً: «لا تخترع أسطورة، أو تنسج بخيالك مكيدة، بل خذ ما تعطيه لك الحياة. إن الحياة أغنى بكثير من ابتداعاتنا، وخيالنا لا يستطيع أن يمدنا أبداً بما تمدنا به حتى وهي في أبسط حالاتها، وأشدها تواضعاً... احترم الحياة».

وقال مرة أخرى لأديب ناقد: «أنا لا أعكف على دراسة الحقيقة في تعمق حينما أستعد لكتابة قصة، فإن ما أعرفه عن الحقيقة يكفيني، ولكني أدرس الحياة نفسها في أدق تفصيلاتها».

وأشار الناقد الفرنسي السابق الذكر «ليون روبيل» إلى هذا الاتجاه بقوله: «يريد دوستوييفسكي من بادىء الأمر وقائع محددة محبوكة، وأشخاصاً حقيقيين. ولنأخذ قصة الأخوة كرامازوف مثلاً لذلك: لقد كتب في ١٦ من مارس سنة ١٨٧٨ إلى صديقه ف.ف. ميخايلوف يقول إنه يستعد لكتابة قصة مطولة يلعب فيها الأطفال دوراً معيناً، وطلب إلى ذلك الصديق أن يكتب له كل ما يعرفه عن الأطفال... عن حوادثهم وعاداتهم وعباداتهم وردودهم وخصائصهم وحياتهم الخاصة ومعتقداتهم وشيطنتهم وبراءتهم وطبيعتهم وما إلى ذلك».

وكتب دوستوييفسكي خطاباً إلى ليوبيموف قال فيه: «إن كل ما قال: إيڤان، وهو بطل في قصة الإخوة كرامازوف، كل ما قاله في فصل (التمرد) مبني على وقائع حقيقية نشرتها الصحف اليومية، ولم ابتدع أنا شيئاً منها. فالجنرال الذي أطلق كلابه المتوحشة على طفل فافترسته أمام أمه، أقدم على ذلك فعلاً بقصد المتعة، ونشرت الصحف النبأ في الشتاء الماضي».

وجاء في كتابه «يوميات كاتب» (١٨٧٦): «يقولون دائماً إن الحقيقة محزنة مملة، والإنسان يهرب إلى الفن وزخرف الخيال فيقرأ القصص في سبيل الترويح عن النفس. ولكني أرى عكس ما يقولون، فليس هناك ما هو أشد غرابة وإدهاشاً من الحقيقة الواقعية. بل ليس هناك ما هو أبعد عن التصديق، في بعض الأحيان، من الحقيقة. إن كاتب القصة لن يجد أبداً أموراً مستحيلة التصديق مثل التي تكشفها الحقيقة الواقعية كل يوم في ملايين الصور التي تبدو عادية إلى أقصى حد...»

وبحسبنا ذلك للإبانة عن منهج دوستوييفسكي في كتابه قصصه، ذلك المنهج الذي مكنه من ابداع روائعه الأدبية التي بهرت العالم. أما المضمون الذي دارت حوله أغلب تلك الروائع، والذي حظي بأكبر قسط من رعايته، فلم يساهم بقسط أقل من القسط الذي ساهم به منهجه في دعم مكانته الأدبية. لقد وضع دوستوييفسكي نصب عينيه أن يمتحن أثر هبوب المعتقدات الغربية على روسيا، والصراع الذي قام فيها بين القديم والجديد، وما ترتب على ذلك من نتائج خطيرة... فجاءت قصصه تصويراً حياً لمعترك الحياة الفكرية الروسية في وقته، وتسجيلاً واعياً لحركة تطور مجتمعه، وتطبيقاً واقعياً عملياً لوجهات نظره، وبلغت قدرته الفائقة على الشرح والمحاجة والإقناع حداً بهر مؤيدي رأيه ومعارضيه على السواء.

لقد صور في قصة «المذلّين والمهانين» (عام ١٨٦١) مدى تجرد الرجل الرأسمالي من المشاعر الإنسانية، وتحلله من القيم السلوكية، وتسببه في إذلال الآخرين والإضرار بهم. فالأمير ڤالكوڤسكي، وهو بطل القصة المذكورة، تحول من إقطاعي كبير إلى رأسمالي خطير، وغرس حب المال في نفسه صفات جديدة أسوأ من صفاته السابقة. وهو يذكر بنفسه تلك الصفات في القصة فيقول: «إن العالم كله لم يخلق إلا لي أنا... لقد حررت نفسي منذ زمن طويل من المسئوليات إلا المسئولية التي أستخلص منها فائدة لنفسي... عليك أن تحب نفسك... هذه هي القاعدة الوحيدة التي أقرها.... إن الحياة معاملة تجارية... ليس لي قيم أخلاقية ومثل عليا، ولا أحب أن يكون لي شيء من ذلك... أنا لم أشر في يوم من الأيام بتأنيب الضمير... أنا أقبل أي شيء كان ما دمت أنعم من ورائه بالرفاهية.»

وقال يناقش أحد أشخاص القصة في الاشتراكية: «إني إذا أشفقت على فقير يعاني من البرد فاعطيته نصف معطفي فإنه يصبح نصف عريان، واصبح أنا أيضاً نصف عريان. ولكني إذا أشفقت على نفسي بدلا من الإشفاق عليه، وعملت جهدي في سبيل الكسب، وحذا كل إنسان حذوي، أصبح الجميع أغنياء، وعمّت السعادة الإنسانية جمعاء» ولم يرد دوستوييفسكي على هذه المغالطة المكشوفة، ولم يبد رأيه في الاشتراكية. ولسنا ندري أيرجع ذلك إلى إيمانه بأن المحبة والمغفرة هما وحدهما اللتان توفران السعادة والرفاهية للمجتمع دون أي نظام سياسي صالح، أم إلى الخوف من نفيه ثانية إلى سيبيريا التي لم تبارح ذكرياتها الأليمة ذاكرته قط.

بيد أنه أشار إلى الاشتراكية مرة أخرى في قصته الشهيرة «الجريمة والعقاب» (صدرت عام ١٨٦٦). وكان راسكولنيكوف، بطل تلك القصة، يعاني شدائد الفقر، وخطرت الاشتراكية على باله بحسبانها سبيل الخلاص من عنائه، ولكنه رفضها، لا على أساس أنها غير مقبولة في ذاتها، ولكن على أنه لا يستطيع انتظار تحقيقها... فمشكلته تحتاج إلى حل

عاجل حاسم، وعليه هو وحده أن يحقق لنفسه ذلك الحل... ولكن كيف؟ إن طرق الخلاص الشريفة مسدودة جميعها في وجهه... إن أوضاع مجتمعه القاسية تثقل كاهله، وقوانينه تكاد تسحقه، فلماذا يخضع لتلك الأوضاع وتلك القوانين؟ لماذا لا يحطمها؟ إن الذين يحققون الغنى والمجد في ظل النظام الرأسمالي هم الذين يحطمونها. هناك عجوز شمطاء تقرض المعوزين المال بالربا الفاحش فتزيدهم عوزاً، وتقتل بذلك نفوسهم، بل قد تقتل أولادهم جوعاً وبرداً... فلماذا لا يقتل هذه الحشرة السامة، وينقذ الناس من شرها، ويفرّج كربته بمالها، ويفرج كذلك كربة من يعرفهم من المعوزين؟ ماذا يمنعه من ارتكاب ذلك؟ الرحمة!.. العدالة!... الإنسانية!... إن هذه المثل تبرر قتلها في سبيل إنقاذ الآخرين.. إن الجبن وحده هو الذي يحول دون ذلك.... ألم يحقق نابليون المجد بقتله ملايين الأنفس البريئة؟ إن نابليون بطل، ولكنه هو جبان رعديد...

ارتكب راسكولنيكوف جريمته متأثراً بتلك الآراء، ولكنه ما قتل العجوز المرابية وأوشك أن يهرب حتى فاجأته أختها، وهي فتاة طيبة بريئة. فاضطر إلى قتلها هي أيضاً ليخفي الجريمة بالجريمة... لم تتلوث يداه بالإثم حتى أخذت تلك الأفكار النابليونية تتكشف عن زيفها شيئاً فشيئاً. شعر بانقطاع الصلة بينه وبين الإنسانية، وبموت كل عاطفة نبيلة، وبعجزه عن مواصلة الحياة.... شعر بعد اقتراف الجريمة بألا مخرج له من محنته كما كان يشعر بذلك قبل اقترافها...

احتضن حبيبته «سونيا» التي اضطرت إلى بيع نفسها في سوق الهوى لتعول أمها وأخواتها الجائعات، فخيل إليه للحظة من اللحظات أن إنسانيته عاودته... ولكن السراب لم يلبث أن توارى عن عينيه، فأسلم نفسه إلى السلطات، واعترف لها باقتراف جريمته.

لم يخف أن دوستويفسكي عبر في تلك القصة عن قلقه وخوفه من تسرب بعض المعتقدات الرأسمالية الضالة إلى الشباب الروسي، وصور على نحو تطبيقي كيف أنها تفسد عقله وروحه، وتقتل إنسانيته... فليست آراء راسكولنيكوف إلا وليدة المثل الفكرية الغربية التي تقول إن الغاية تبرر الواسطة، وتغتفر للفرد اقتراف أي أمر في سبيل تحقيق مصلحته، أو حل مشكلته... أما «سونيا» فقد رمز بها الكاتب للوطن الروسي... كان على راسكولنيكوف أن يحتضنها في خشوع ليسترد إنسانيته.

واستمسك دوستويفسكي في قصة «المحسوسين» برأيه في خطر الثقافة الغربية على بلاده. فإن «شاتوف»، بطل القصة، عرف وطنه على حقيقته عندما ابتعد عنه في زيارة إلى أوربا أدرك خلالها كنه ثقافة تلك البلاد... اقتنع بأن إعجاب روسيا بكل ما هو غربي، بل تقديسها له، أفقدها عقيدتها الدينية وشخصيتها، ومن ثم أعجزها عن أن تصبح أمة عظيمة... إن الأمة العظيمة لا يمكن أن تكون أمة تابعة، وأن تقنع في الحياة بدور ثانوي غير أصيل... بيد أن دوستويفسكي رجع قليلاً عن تطرفه في قصته هذه، فلم يعد يصر على سد أبواب روسيا ونوافذها في وجه الفكر الأوربي، بل قال على لسان بطله شاتوف إن على روسيا أن تعرف أوربا، فهي لن تفطن إلى نفسها وتدرك خصائصها الممتازة على حقيقتها إلا إذا عرفتها... ثم تراجع دوستويفسكي عن تطرفه خطوة أخرى إذ رأى أنه لا بد من قيام صلة بين روسيا وأوربا الغربية بحيث تفيد من حضارة الغرب دون أن تفقد شخصيتها، وبحيث تتغلغل تلك الثقافة في روسيا دون أن تفسدها.

أما قصة «الأخوة كرامازوف» فتصور أسرة أغلب أفرادها من الطراز الروسيّ الصميم. فالأب يعتنق «الأورثوذكسية» اعتناق جاهل لا يعرف من دينه إلا الشكل دون الجوهر. فهو ينغمس في الرذيلة إلى أذنيه برغم إيمانه الساذج، وخشيته عقاب الآخرة، ذلك لأنه آثم بطبعه، والطبع غلاب. بيد أنه يطمع في الغفران برغم ذنوبه. وقد أفقدته بهيميته شعوره بالكرامة الإنسانية إلى حد أنه كان يتباهى في بعض الأحيان بمخازيه، ويجد متعة في تلطيخ نفسه بالعار، وبلغ من ذلك حد شكاية زوجته إلى الناس ناسباً إليها زوراً إقدامها على الغدر بعهده وتلويث شرفه...

لهذا الأب أبناء أربعة، ثلاثة منهم شرعيون، والرابع غير شرعي. وأكبر أولئك الأخوة، ويدعى ديمترى، أخ غير شقيق لأخويه الآخرين الشرعيين الشقيقين. وهو أقرب أخوته شبهاً بأبيه في ميوله البهيمية، وفي تصرفاته العنيفة المتهورة لدى الغضب. ولكنه كان أسلم من أبيه طوية، وأميل إلى فعل الخير في غير أوقات الغضب، وأكثر شعوراً بالشرف والكرامة. كان عنيفاً كل العنف، ولكنه كان ساذجاً كل السذاجة. ولعل القسط البسيط الذي ناله من التعليم، والقدر القليل الذي ورثه عن أمه من دماثة، هما اللذان خففا من حدة ما ورثه من بهيمية أبيه، ومن عدم شعوره بالكرامة الإنسانية.

أما الأخ الثاني، ويدعى إيڤان، فقد نهل من الثقافة الغربية إلى الحد الذي زعزع عقيدته الدينية، وأوقعه في شك أليم. بيد أنه ظل متصفاً ببعض طباع أبيه برغم اختلافه عنه في عقليته التي اصطبغت بالصبغة الغربية، فهو مستغرق مثله في حب ذاته، وتوفير أسباب متعتها، وإشباع رغباتها دون ما اهتمام بما يترتب على ذلك من أضرار تصيب من حوله.

والأخ الثالث، ويدعى أليوشا، يختلف عن أخوته الباقين في رقة طبعه، وزهده في متاع الحياة، وعطفه على الأشقياء المعذبين. ولكنه اندفع في حماسة، كحماسة أبيه، وراء هذه الميول النبيلة حتى أعرض عن الدنيا، ووهب نفسه للدين، والتحق قسًّا تحت الاختبار بأحد الأديرة، متتلمذاً على كاهن ورع يدعى الأب «زوسيم». وبرغم اختلافه عن أفراد أسرته في المعتقدات والأهداف فقد ظل يشبههم في اندفاعه وراء ميوله، ومغالاته في إخلاصه لمعتقداته، ومعاناته في بعض الأحيان لقلق نفسي غامض...

أما الأخ الرابع غير الشرعيّ، ويدعى زميردياكوف، فقد

ورث عن أبيه كل ما اتصف به من بهيمية وفجور، وأشبه إخوته في نزعاتهم الخاطئة دون الخيّرة.

وقد رأى بعض النقاد، نظراً لتشابه أفراد تلك الأسرة من بعض النواحي رغم اختلافهم البيّن، أن دوستوييفسكي لم يقصد من كتابة قصته هذه إلا إبراز أثر الوراثة في الأبناء، ناهجاً في ذلك نهج أنصار «المذهب الطبيعي» من كتّاب القصة. ولكننا إذا امتحنا هذا العمل الأدبيّ الضخم على ضوء معتقدات الكاتب الدينية والسياسية التي شرحناها آنفاً نجد أن قصده تجاوز الحدود التي وضعها أولئك النقاد، وانطلق إلى آفاق بعيدة- ونحن لا نعني بهذا أن دوستوييفسكي أهمل إبراز أثر الوراثة في الأبناء، ولكننا نعني أنه اهتم، علاوة على ذلك بأثر البيئة والدين والثقافة الغربية فيهم أيضاً.

لقد وضع لكل واحد من أولئك الإخوة ظروفاً خاصة به، وقيّده بمعتقدات معينة، وأوضح لنا رد فعل تلك الظروف والمعتقدات على نحو يؤيد وجهات نظره الدينية والسياسية. فديمتري كرامازوف، الأخ الأكبر، روسيّ قح تتمثل فيه صفات قومه الأصيلة. فهو طيب القلب، عفيف النفس جواد برغم بهيميته الموروثة، وبرغم ضحالة ثقافته وضيق ذات يده.

كان ضابطاً في كتيبة من كتائب الجيش ترابط في قاعدة أحد الأقاليم. وأعجب بابنة الجنرال حاكم الإقليم، وهي فتاة تدعى «كاتيا»، ذات حسن وخيلاء. وتودد إليها فقابلت تودده بالصد والكبرياء، وأثار ذلك حقده وحفيظته. ولكن محنته لم تطل، فسرعان ما سنحت له فرصة للانتقام... انتحر أبوها لأنه بدّد مبلغاً من المال وعجز عن سداده. وعرفت «كاتيا» سر انتحار أبيها، وأبت أن يفتضح ذلك السر الذي لا يلوث شرف أبيها وحده، بل شرف الأسرة بأسرها. واعتزمت الحصول على المبلغ المبدّد بأية وسيلة، وإيداعه خزانة الإقليم قبل أن يشعر أحد بعجز «عهدة» أبيها، وعلمت أن ديمتري كرامازوف ورث مالاً عن أمه، وأن المبلغ الذي يتعلق به مصيرها ومصير أسرتها متوفر لديه، وأرغمها الحرج الذي هي فيه على أن تطلب إلى ذلك الغرير العابث أن يقرضها ذلك المبلغ على أن ترده إليه مضاعفاً في خلال المدة التي يستغرقها السفر البعيد إلى عمتها الواسعة الثراء، والعودة من عندها بالقدر الذي تريده من مال. ورأى ديمتري الفرصة سانحة لإذلال تلك الفتاة المتغطرسة كما أذلته من قبل، وأجابها بأنه مستعد لتلبية طلبها دون ما نظر إلى ردّ الدين، ولكنه يشترط شرطاً واحداً هو أن تحضر بنفسها إلى منزله لتأخذ المبلغ المطلوب. وحضرت إليه ذليلة مطأطئة الرأس، وخلعت قبعتها ومعطفها وسترتها صادعة لأمره. وما همت أن تخلع قميصها حتى ردها عن ذلك مكتفياً بهذا القدر من إذلالها، وألبسها ما خلعت من ثياب، وأعطاها مبلغ المال الذي جاءت تطلبه. وشيّعها في صمت إلى الباب.

حفظت كاتيا هذا الجميل لديمتري شاعرة بأنها مدينة له بما هو أهم من الحياة نفسها. مدينة له بكرامتها التي صانها مرتين، مرة برجوعه عن الاعتداء على عرضها، ومرة أخرى بإعطائها المبلغ الذي أنقذ شرفها ثانية، وشرف أسرتها... وعلى ذلك كرست له حياتها، وعدّت نفسها مخطوبة له، مقسمة ألا تتزوج غيره سواء أرضي بزواجها أم لم يرض.

إن كبرياء كاتيا أثار بهيمية ديمتري أول الأمر، ولكن خضوعها له أعاد إليه نخوته وإنسانيته، وحمله على كبح جماح شهوته، ودفعه إلى إعطائها المبلغ الذي تطلبه دون مقابل. لقد تحول ديمتري، المؤمن في أعماقه، من وحش إلى قديس عندما رأى نفساً بشرية تتعذب... إنه جدير أن يقوم بأنبل الأعمال إذا لان قلبه، ورقّت حاشيته، ولكنه لا يتورع كذلك عن ارتكاب حتى إراقة الدم، وإزهاق الروح، إذا ثارت ثائرته...

قابل تودد كاتيا بعد ذلك بالإعراض، فهو لم يشعر بذرّة من حب تجذبه إليها. وأية صلة يمكن أن تربط فتى جامح العاطفة، بهيمي الغريزة مثله بفتاة مهذبة رقيقة محتشمة مثلها؟... لقد أحب فتاة أخرى على شاكلته تدعى «جروشنكا» كان أحد الأغنياء قد أحاطها برعايته ثم اتخذها محظية له... وتشاء المصادفة أن يتعلق أبو ديمتري أيضاً بتلك الفتاة اللعوب، وأن يحاول إيقاعها في حبائله بشتى الطرق. واشتدت المنافسة عليها بينه وبين ديمتري الذي تولّد في قلبه، لهذا السبب، حقد جديد على أبيه، فقد كان يحقد عليه من قبل لاعتقاده أن أباه لم يعطه إلا جزءاً من نصيبه في ميراث أمه واغتال الباقي لنفسه، وحمله ذلك على أن يتوعده بالويل، ثم يتوعده بالقتل.

كذلك لم تشعر كاتيا بأي ميل إلى ذلك الوحش الذي فرضت على نفسها أن تظل مخلصة له... حتى ولو قابل إخلاصها بالجحود. ولكن قلبها لم يذعن، كعادة القلوب، لإرادتها، وتعلق بإيفان الذي يماثلها ثقافة واتزاناً، ولم يلبث إيفان أن بادلها حباً بحب، ولكن حبها ظل مكتوماً في صدريهما، وظل عقيماً، لأنها تزعم الإخلاص لديمتري، وتعد نفسها، كما قلنا، مخطوبة له.

وعلمت كاتيا بما بين مخطوبها وجروشنكا من علاقة، وبحاجته الشديدة إلى المال الذي هو وسيلته الوحيدة إلى تلك الغانية. ولم يغب على كاتيا أنه سيرفض قبول أية منحة منها، فاحتالت لتمنحه ما هو في حاجة إليه. وأعطته مبلغاً كبيراً من المال على أن يرسله بالبريد إلى عمتها، متوقعة أن يستحوذ عليه. وحدث ما توقعت، فقد بدّد جزءاً منه برغم انصراف نيّته بادىء الأمر إلى تنفيذ المهمة التي نيطت به، ولكن ضميره استيقظ قبل أن ينفق الباقي على ملذاته. واحتفظ بذلك الباقي في صرة ربطها على صدره، ما قرب قلبه. واعتاد منذ ذلك الحين أن يضرب بيده على تلك الصرة كلما أراد أن يدلل على أنه رجل شريف، ويقول وهو يفعل ذلك: «هنا شرفي». وحسب الناس الذين لم يكونوا يعرفون سره أنه يقصد «قلبه»، لا صرة النقود التي توهم أن احتفاظه بها، وردع نفسه عن تبديد ما بها دليل على أنه ليس لصاً، فاللص لا يشعر بتأنيب الضمير، ولا يبقى على بقية من مال يسرقه انصياعاً لصوت ذلك الضمير.

وبلغت أزمة المنافسة المستعرة بينه وبين أبيه أشدها حين بلغ من جنون هذا الشيخ المتصابي بحب جروشنكا أن وضع

بضعة آلاف من « الروبلات » في غلاف وكتب عليه « هذا المبلغ لجروشينكا إذا ما جاءت إليّ الليلة لتأخذه بنفسها ». وأرسل إلى سالبة لبه من يحمل إليها نبأ ذلك الغلاف. وسرعان ما نما النبأ إلى ديمتري فنبتت فكرة قتل أبيه عنيفة في ذهنه. كانت هذه الفكرة تطيف قبل ذلك غامضة بخاطره، ولا تتمخض إلا عن التهديد والوعيد، ولكنها تمخضت الآن عن نية ثابتة، وعزم أكيد على تنفيذها، ولم يتوان عن تنفيذ ما اعتزم، وذهب إلى بيت أبيه في تلك الليلة متوقعاً أن يجد حبيبته هناك فيقتلها ويقتل أباه الذي سلب ماله، ثم حاول سلب حبيبته بماله المسلوب!...

انسل إلى حديقة البيت، وتوجه تحت جنح الظلام إلى غرفة أبيه.. إلى مباءة الغرام الدنس. وطرق بابها وهو يحاول أن يلمح من خلال الزجاج ما بداخل الغرفة. وأقبل الشيخ المتدلّه منادياً بصوت متهدّج: « جروشنكا!.. هل أقبلت آخر الأمر يا حبيبتي! ». وفتح الباب وهو يذوب لهفة على الفتاة المشتهاة ولكنه صدم برؤية ابنه ديمتري هاجماً عليه، موشكاً أن يضربه بآلة نحاسية، ونظر إلى المعتدي عليه في ذهول. وإذا جذوة غضب ديمتري تنطفىء فجأة، فلا يلبث أن ينكص على أعقابه، ويلوذ بالفرار. ويحدث وقتئذ أن يشعر الخادم العجوز جريجوري بالجلبة التي حدثت، ويجرى خلف المعتدي الفار دون أن يعرف شخص من يطارده، ويلحق به وديمتري يحاول أن يقفز من فوق سور الحديقة. ويحاول الإمساك به، وفي هذه اللحظة يتبين وجهه، ولكن سيده يعاجله بضربة على رأسه من تلك الآلة النحاسية. ويقع الشيخ المسكين مضرّجاً بدمه.

جرى إلى جروشنكا منخلع القلب، مخضّب اليدين بدم خادمه الذي ظن أنه قتله. واقتاد حبيبته إلى بيت حان، وطلب خمراً وعزفاً ورقصاً، وجاءته الزجاجات والعازفون والراقصات. وأخرج المبلغ الباقي من مال كاتيا، « الدال على شرفه »، وطفق يبعثره هنا وهناك على الشراب، والغانيات ومائدة الميسر... ولم تطل به تلك الحال، فقد فاجأه رجال الشرطة واستجوبوه، ووجهوا إليه تهمة قتل أبيه... فقد قتل أبوه تلك الليلة! أما الخادم جريجوري فكانت إصابته غير قاتلة.

كان يتوقع أن يتهموه بقتل جريجوري، لا أبيه. إنه لم يقتل أباه، فكيف قتل؟.. وأقسم للمحقق أنه بريء مما يتهمه به. ولكن المحقق لا يقتنع بالقسم... وسأله عن ذهابه إلى غرفة أبيه تلك الليلة فلم ينكر ذلك، بل أقر أنه ذهب إليه معتزماً قتله، ولكنه ما همّ بذلك حتى شلّت قوة خفية يده!... وأرخى بصره، وشرع يقول في هدوء: « حدث الأمر على هذا النحو، بحسب ما أرى... توارى الشيطان عني فجأة. ولست أدري أحدث ذلك استجابة لدموع إنسان بكى في سبيل خلاصي، أم لصلوات أم أن ملاكاً هبط عليّ وقبلني في تلك اللحظة... » وسأله المحقق عن ذلك المال الذي توفر له فجأة، وكانت يده خلواً منه حتى قبيل وقوع الجريمة. وأجاب بأنه مال كاتيا، وذكر له قصة احتفاظه به للتدليل على تحلّيه بالشرف، ولكن كيف يقتنع المحقق بهذه الأدلة الواهية على براءته بينما الأدلة المتوفرة على إدانته قاطعة.. هناك شهادة الخادم الذي رآه يخرج راكضاً من غرفة أبيه ليلة مقتله... ويداه الملوثتان بالدماء... ومبلغ المال الذي أنفقه وهو لا يزيد ولا ينقص عن المبلغ الذي وضعه أبوه في الغلاف، وتوارى عقب ارتكاب الجريمة!...

كان « زميردياكوف »، الابن غير الشرعي لفيودور كرامزوف القتيل، هو الذي ارتكب جريمة القتل ليسرق الغلاف المحتوى على المال. وحزر إيڤان كرامازوف ذلك، فذهب إلى أخيه القاتل، وواجهه بظنونه، واستدرجه في القول حتى حمله على الاعتراف بما ارتكبت يداه، ولكن المعترف لم يقصر الجرم على نفسه، بل اتهم مستجوبه بأنه شريكه فيما ارتكب. اتهمه بأنه هو الذي حرضه ضمناً على قتل أبيه بإبداء امتعاضه منه، وكراهيته له، وقوله كلما وقع شجار بين أبيه وأخيه ديمتري: « إن تعباثاً سيبتلع ثعباناً آخر ». بل لقد صارح القاتل أخاه إيڤان بأنه رحل إلى بلدة أخرى ليلة ارتكاب الجريمة لأنه كان يعلم وقت ارتكابها على وجه التحديد.

ويدخل في روع إيڤان أنه تسبب في قتل أبيه فيشعر بالإثم، وبتأنيب الضمير، ويلح عليه هذا الشعور حتى يكاد يذهب بعقله. وقصد إلى كاتيا، وأبلغها بأنه آثم... بأنه قاتل أبيه الحقيقي، لا بد أن يعترف بذلك للمحكمة إنقاذاً لرقبة أخيه ديمتري المظلوم.... وتجزع كاتيا أشد الجزع، وتحاول عبثاً أن تقنعه بخطأ ظنه، وتبدد وهمه، وتتساقط دموعها وهي تتوسل إليه أن يرجع عن عزمه، ويفتضح حبها العنيف له، حبها الذي لم يتلهف على شيء سواه ولكنه لم يأبه وقتئذ له، فقد غلب شعوره بالإثم على كل شعور غيره.

انخدعت النيابة العامة والمحلفون وهيئة المحكمة في الحجج الباطلة الدالة على أن ديمتري قتل أباه. وقبيل صدور الحكم بإدانة المتهم البريء وقعت فاجعة القصة الأخيرة في ساحة المحكمة... تقدم إيڤان إلى القضاة شاحب الوجه، ملتمع العينين ببريق الجنون، واعترف بأنه هو الذي قتل أباه، ولا بد أن يلقى جزاءه. وصاحت كاتيا وقد خرجت من وعيها بدورها: « إن الرجل يهذي ». ولم تبال وقتئذ بافتضاح حبها لإيڤان، وبحنثها في يمين ولائها لديمتري....

★ ★ ★

يرى بعض النقاد أن هذه القصة التي مات كاتبها قبل أن يتمها قصة جريمة ذات « طابع بوليسي »، فخيوطها تتجمع لتحوك تهمة باطلة تلصقها برجل يصوره الكاتب في صورة مظلوم بريء، وهو في الواقع معتد أثيم برغم براءته من التهمة المحوكة، وبرغم استدرار المؤلف لعطف القارىء عليه... بيد أننا نرى هذا النقد غير موفق، فإذا سلمنا من باب الجدل أن وقائع هذه القصة شبيهة بوقائع « قصص الجرائم » من حيث الشكل، فإن دوستوييفسكي استطاع أن يبتدع من تلك الوقائع التي لا يستطيع غيره أن ينسج منها إلا « قصة بوليسية » تافهة، مأساة إنسانية تضطرم فيها أحر المشاعر، وتصطرع فيها أخطر

المعتقدات، وهو لم يكتبها بقلبه وأعصابه فحسب كما يرى بعض الناس، ولكنه كتبها بها ممزوجة بعقله وموهبته الفنية.

وما دمنا نتحدث عن بناء هذه القصة فيجمل بنا أن نذكر في هذا الصدد ما لاحظه الناقد الروسي «بيرميلوف» من تناقض تصرفات ديمتري ليلة اقتحم على أبيه غرفته بقصد قتله. لقد كان هذا الفتى الأهوج قميناً أن يهدأ بعدما وجد أباه وحيداً يترقب سدى مجيء جروشنكا وقد نهشته نار اللوعة... بل كان قميناً أن يبتهج بعدما وجد أن مبلغ المال الضخم الموضوع في الغلاف لم يُغر حبيبته بالذهاب إلى أبيه الفاجر، وخيانة عهده... كان هذا وذاك هما الجديران وحدهما بأن يثنياه عن ارتكاب جرمه، ولكنه في التحقيق معه ينسب رجوعه عن ارتكاب هذا الجرم إلى أسباب لا تمتّ للواقع بصلة... واكبر الظن أن مؤلف القصة لم يقصد من وراء ذلك إلا أن يدلل على أن سجية ديمتري الروسية المشبعة بالورع وسلامة النية هي التي عصمته وثنته عن سفك دم أبيه. ومما لا يوائم الواقع كذلك خروج ديمتري من غرفة أبيه راكضاً منفعلاً بلا داع، وضربه جريجوري ضربة قاتلة حين حاول هذا الأخير الإمساك به وهو يقفز من فوق سور الحديقة... إن هذا التصرف يصبح مفهوماً لو أن ديمتري أقدم على قتل أبيه. أما وهو لم يقترف هذا الجرم أو غيره، فكيف تكون محاولته الهرب على ذلك النحو مفهومة؟...

إن دوستويبفسكي جنح في هذه القصة كعادته إلى إظهار ما يتحلى به الشعب الروسي المحافظ على تقاليده من طيبة قلب طبيعية، ومن نخوة غريزية، ونبل أخلاقيّ أصيل برغم مظهره الخشن، وميله لدى الغضب إلى العنف. إن الروسي الصميم يأثم، ولكن طهارة قلبه الأصيلة تحمله على التوبة والندم. وديمتري كرامازوف الذي لم تلوثه الثقافة الغربية، ولم يفسد عقله التبحر في العلم، يتحلى بملك الخلال الروسية الساذجة الرائعة... هو يؤمن بأن الإنسان آثم بطبعه، ولا محيص له عن ذلك. ولكن لا توبة بغير إثم، ولا غفران ولا رحمة بغير توبة... فالإثم لا بد منه حتى تتجلى رحمة الخالق وغفرانه. أما إيڤان فهو الروسيّ الذي فتح عقله وقلبه للعلم الغربي والثقافة الغربية فتعفن قلبه، وفسد عقله حتى غلبه الشك فالجنون.

ومن الطبيعيّ أن يثير تأييد دوستويبفسكي القوى للاتجاه المحافظ في روسيا عاصفة من النقد، ولكن إجماع النقاد انعقد، كما قلنا، على أن هذا الكاتب الفذ، برغم معتقداته الرجعية، وصل في عالم الكتابة إلى ذروة لم يصل إلى مثلها شيكسبير، قال الكاتب العالم «جروسمان» في هذا الصدد: «أبدى دوستويبفسكي في قصة «الإخوة كرامازوف» ميلاً أشد إلى الرجعية، ولعل مرجع ذلك إلى حالة المرض واليأس التي كان يعانيها، لا سيما في أواخر أيامه... ولكنه وصل في تلك القصة، برغم ذلك، إلى ذروة الفن. فهي من ناحية تصميمها وعرضها الفنيين تقف في قمة الآداب العالمية...» وكتب الرسام الشهير إليا ريبين إلى أحد أصدقائه يقول: «إن دوستويبفسكي ذو موهبة فنية خارقة للعادة، وتفكير عميق، وقلب كبير، ولكن ظروفه السيئة حطمته فلم يدرك حركة التقدم في عصره على حقيقتها، ولم يسايرها، فالعلوم الحديثة في نظره من وحي الشيطان، وهي تورث الكفر لا محالة!... فإيڤان كرامازوف كافر لأنه متعلم، وهو بغيض إلى المؤلف برغم اتزانه وشعوره بالعدالة. وأخوه ديمتري، على عكس ذلك، حبيب إلى المؤلف برغم حماقته الهوجاء، وبهيميته الوضيعة، وميله الغريزي إلى التحطيم والقتل...»

ويرى الناقد «بيرميلوف» إن دوستويبفسكي ازداد رجعية في قصة الإخوة كرامازوف، ويقول في ذلك: «إن جروشينكا، برغم الفتنة التي خلعها عليها الكاتب، تنحدر إلى التفاهة والسوقية إذا قيست «بناستازيا فيلوپوڤنا»، إحدى شخصيات قصته «الأبله». فالأولى لم تتمرد على ظلم المجتمع لها، بل خضعت له وسايرته، في حين ألقت الثانية في النار الملتهبة بمبلغ كبير من المال وهبه لها مغريها... وأليوشا كذلك لا يطاول الأمير ميشكين «الأبله» في تجسيده للطهر والمحبة، فقد كان شغله الشاغل طوال يومه أن يحل مشكلات أسرته التافهة، وكان قادراً على التنفس في جوها الآسن العفن....»

بيد أننا لا نجد مبرراً لهذا النقد، فإن مسلك جورشينكا في قصة الإخوة كرامزوف لا يكاد يختلف عن مسلك ناستازيا في قصة «الأبله»، فقد خضعت كل منهما لنظام إقطاعي قاس أذاقها مرارة الفقر والعوز، وأرغمها على الاستسلام لرجل موسر أحاطها برعايته، وصانها من التسكع في الطرقات لبيع عرضها. وإذا كانت ناستازيا قد ألقت بمبلغ جسيم من المال مأخوذة بغضبة لكرامتها، ومتأثرة بطهر «ميشكين»، فإن جروشينكا ضحت كذلك بالمال الوفير الذي حاول فيودور كرامازوف إغراءها به، مدفوعة إلى ذلك بحبها لديمتري... أما أليوشا فكان يقوم بدور «رسول السلام». وإذا انحصرت مهمته في محيط خاص، فإن ذلك لا يعني أن دوستويبفسكي لم يرمز إلى «العام» عن طريق «الخاص». ثم إن ذلك الكاتب الفذ مات قبل أن يتم قصته، ويرى نقاد عديدون أن مقدمات القصة تدل على أنه كان ينوي توضيح مهمة ذلك «الساعي إلى السلام» في الجزء الباقي منها. وقد قال الكاتب البولندي «أندريه ستاوار» في ذلك: «إن هدف دوستويبفسكي الذي سعى إليه، وحال موته دون تحقيقه، هو أن يجعل أليوشا في قصته ناطقاً بلسان اشتراكية ذات أهداف مسيحية. أما إيڤان فيمثل العنصر السلبي بالنسبة للمثل الأعلى المسيحي، فإن تمرده على أحكام الدين يختلط اختلاطاً فريداً في نوعه بمعتقداته الدينية. وشكوكه تبدو متجلية في فصل القصة المشهور «أسطورة النائب العام»...».

لقد صور لنا دوستويبفسكي بهذا الفصل، في معرض تأييده للأرثوذكسية التي يؤمن بها، محاكمة تجري في إحدى محاكم التفتيش يدلل في أثنائها على أنه لم يحد عن تعاليم المسيحية، فينهره رئيس المحكمة ويسفه قوله. ويدخل عندئذ رجل وقور تحيط بوجهه هالة من نور، ويؤيد دفاع المتهم، ويؤكد أن ما

تأخذه عليه المحكمة يطابق أحكام المسيحية. فيثور عليه رئيس المحكمة ويسأله: «ومن تكون أنت؟» فيجيب الرجل الجليل: «أنا المسيح». ويصيح عندئذ رئيس المحكمة: «إنه جاهل بأصول المسيحية. خذوه واصلبوه من جديد». وقد دلل الأستاذ العقاد بهذا على أن دوستوييفسكي يجيد السخرية على خلاف رأي بعض من النقاد ينكرون عليه ذلك.

بيد أن «ستاوار» قصد، بإشارته إلى هذا الفصل، الحوار الذي دار فيه بين الأخوين «أليوشا» و «إيڤان» في معرض حديث الأول عن الغفران، وقوله إن المسيح غفر ذنوب الناس جميعاً، وإن على الإنسان كذلك أن يغفر ذنوب أخيه الإنسان.... سأله إيڤان: «هل عليه أن يغفر ذنوب الناس جميعها؟... جميعها؟!» وأجاب أليوشا عن إيمان: «نعم». وحدثه أخوه عندئذ عن الجنرال الذي أطلق كلابه المفترسة على طفل، واستمتع بالنظر إليها وهي تنهشه أمام أمه... وسأله: «أيمكن أن نغتفر للرجل فعلته هذه؟» وتردد أليوشا. لقد زعزع هذا السؤال عقيدته من أساسها. وردد إيڤان قوله: «أجب يا أليوشا، أجب، ألا ينبغي قتل هذا الرجل؟ أجب. أنت تقول إن الإنسان مذنب بطبعه، وقمين أن يحتمل العذاب ليكفّر عن ذنوبه. ولكن ما الذنب الذي جناه هذا الطفل؟ لماذا يحتمل هذا العذاب؟ لماذا يعاني هذا الألم؟... وعن أي إثم يكفر؟!... هل هناك إنسان يستطيع أن يغتفر لهذا الجنرال المجرم جرمه؟ هل تستطيع أم الطفل أن تغتفره له؟ وبأي حق تغتفره؟ إنه حق الطفل البريء دون غيره.... بل هو حق الإنسانية جمعاء. والإنسانية لا تغتفر مثل هذا الجرم بحال... اسمع يا أليوشا، إن المثل الكريمة التي تدافع عنها، مهما بلغ سموها، لا تساوي دمعة واحدة من دموع طفل معذب يضرب صدره بقبضته الصغيرة من شدة الألم. قل لي يا أليوشا، ألا يستحق هذا الجنرال القتل؟.. أجب» وغمغم أليوشا مغضياً طرفه: «نعم، إنه يستحق ذلك.»

ويدلل بعض النقاد بهذا الفصل على أن إنسانية دوستوييفسكي تجاوزت كل مدى، وأن حبه للبشر، لا سيما الأطفال، فاق كل حد. ألم يضع رحمته بالأطفال في هذا الفصل من قصته فوق المعتقدات التي يؤمن بها كل الإيمان؟. بل إن جميع قصص دوستوييفسكي تنضح، في الواقع، بمشاركة للمعذبين من الناس فيما يعانون من شقاء. وقد مكنته هذه المشاركة الأصيلة الصادقة من إدراك كل خلجة من خلجات نفوسهم المعذبة، وكل خطرة من خطرات عقولهم المكدودة. واستطاع بعقليته العلمية الجبارة، وبعد نظره الثاقب، وحسه الرقيق المرهف، وموهبته الفذة الخارقة أن يحلل هذه الخلجات والخطرات، ويرجعها إلى أصولها، ويفسرها تفسيراً لا يزال يضيء للمشتغلين بعلم النفس كثيراً من المشكلات التي استعصى عليهم حلها.

لقد استطاع دوستوييفسكي أن يعكس لنا المجتمع الروسي على حقيقته في عهد الإقطاع، وأن يصور مظالم الحكم الإقطاعي التي دمرت حياة عامة الشعب الفقيرة تدميراً، فاستثار بذلك الضمير الإنساني استثارة كانت من أهم العوامل التي عجلت بالقضاء على عهد الطغيان، وأرغمت الطغاة على أن يعترفوا بحقوق الإنسان.

وأرغم دوستوييفسكي النقاد على اختلاف معتقداتهم على الاعتراف بأستاذيته المنقطعة النظير، وبأن روائعه القصصية سمت به إلى ذروة الأدب، وحققت له مجداً أدبياً لم يحققه الكتّاب في مشارق الأرض ومغاربها.